(٦)

من عَرَف فيه قبلتَه
واجتمع به أحدٌ صحبتَه
واستقام له بيته فطرتَه
وقام لجمعه وأبعاضه شرعتَه
وبعث بهواه حقيقته
كان وجها للهو واسما ونُصبا لاللاهو
مركز دائرته وحجر زاويته

حديث الجمعة

١٥ شوال ١٣٨٣ هـ - ٢٨ فبراير ١٩٦٤ م

لا إله إلا الله، نِعمّا هو.

برحمته نقوم، ومنها نستعين، وعليها نتوكل، ولمرضاتها نعمل، وبها فيها نحيا، وبدائمها نُبعث، حياة قيامتنا، وحي قيومنا، وجوه قيامه، وأعلام سلامه.

جاء الحق بجيئة رسوله الحق. وقام الحق بقيام عبده الحق. وتجدد البيان كلما تجدد الإنسان، طبقا فوق طبق يرفع، وطبقا بعد طبق يوضع. فقامت لا إله إلا الله. وتعارفت وعُرفت بقيام عبد الله خلقا يحدث وحقا يبعث، فكانت لا إله إلا الله كتاب الله، وشرعة الله، وعَلَم الله، ببعث عبد الله بحق الله لخلق الله.

حجر الزاوية شهدناه، وحجر الزاوية علمناه، وحجر الزاوية قرأناه، وحجر الزاوية آمناه، فبه ظلالا له آمنَّاه، وبالأمان تابعناه، فأيقناه حجر الزاوية للزمن، بين الأزل اعتقدناه، والأبد طلبناه، في القيام استقمناه،

وحجر الزاوية للإطلاق والتقييد شهدناه، وبمتابعته قمناه وتقلبناه، وفي مرتقانا بمرتقاه جمعناه واجتمعناه، وافترقناه، وتعددناه، وتكاثرناه.

بُعث بالسلام لمن طلب السلم مع الله بالسلم معه، وقام بالأمان من الله لمن دخل في الإيمان به إيمانا بالله ورسوله إيمانا بالرب وعبده.. إيمانا بالخالق وخلقه.. إيمانا باسم الله بباطنه وظاهره.. إيمانا بالله قيومه وقائمه.. إيمانا بالوجود مظهرا للموجد وذاتا وقياما للموجود.. إيمانا بواجب الوجود عند كل موجود، بما يستوجب وجودَه لوجوده.

انتظرته البشرية موعودا ببدء خليقتها لجديد خلقتها، وببدء خلقها لبدء حقها.. انتظرته البشرية نبات الأرض وحيوانها، وبهيمة الأنعام وبشرية الأنعام، رسولا من أنفسهم لكمال خلقها، وبعثها بحقها لكمال عنوانها لمن عنونت بحبها ووجدانها. وعرفت لحكمتها وبيانها بنعمة الله عليها، يعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم على مكث بينهم، ومرجو حال لهم، لتحقيق مآلها بخلقها إلى مآلها لحقها. خلقها مبدعها لنفسه وخلق لها كل شيء، خلقه بها ومنها ومن أجلها.

انتظرته البشرية فكان المنتظر، وطلبته فكان المطلوب وسعادة الطلب. انتظرته وفي دوام تنتظره فهو في دوام المنتظر للفرد والجمع. إنه الحياة والأمل. عرفته المهدي وآمنت بالرفيق الأعلى له الهادي، فكان إلى الأعلى وسيلتها، فطلبت من الأعلى به أن تهتدي، يقوم ويتقلب في الساجدين أزلا وأبدا وسرمدا، ويظهر برسالته لله كلمة تبدأ، وكلمة تتم، في ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين، وهو عن القيام لا يغيب بين بدء وتمام في القائمين بعباد للرحمن على الأرض يمشون، وفي هوان من الناس يُعَامَلون، وبمظاهر الضعف من رحمته يظهرون ويتعاملون، يتعاملون مع الناس معاملة مع ربهم ربا للعالمين، هم له الأيدي والوجه لرب الناس منه من الرحمن الرحيم رحمة منه بالآبقين، {ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة}[1].

يظهر بهم الحق لطالبه، ويقوم بهم السبيل لطارقه، ويفتح بهم الباب لمن وقف أمام الأبواب، وانتظر رفع الحجاب ليكشف عن بصره العماء، ويكشف عن روحه الرداء، ويكشف عن عقله الغطاء، ويكشف عن نفسه بالغفران الابتلاء.

مصاحبه به وظلا له ذاتا لروح يستقبل من سبقٍ لقيامه الجزاء، فيعلم ما قدمت نفسه وما أخرت، فيرجع إلى الأعلى في نفسه هو في معيته، فيطلب الإنظار، ويطمع في الانتظار، فينظر ويؤجل، ويكشف له عما قدم وأخر، وسبق أن أساء فقدر، وهو برحمة الله مع من رافق وصاحب إلى الحق فيه عبر، وبهدي الله ذُكِّر فتذكر، وتأمل فادكر، فعقد العزم على أن يعمل ليحقق لنفسه ما أخر،

ويخرج إلى تدبير الله له عما سبق أن لنفسه بوعيه دَبَّر، فإذا ما أوتي الحكمة، وكشفها الخير الكثير، والعفو الوفير، والرحمة المغدقة، وأحواض الحياة المتدفقة، فمنها نهل، وبها استكمل، وطلب من الأعلى كمال إنسانه، ووعد إحسانه، بشرا مُبشَّرا لعَلَمِه وعنوانه، وقَدَرا مُقدَّرا بقدرته وعزته، فكتم أمره حتى بلغ رشده، وقد اختار جوار ربه، معتذرا عن السفور بحقه، يوم هو بالحق أُنزل.

وهو في القرب وفي الجوار لخير قومه طلب أن يعلم قومه ما غفر له ربه فترك له أمره فبالحق نزل، فبالحق نزل فبُعث في دنياه على سنة الله معه مغفورا بقديمه، وقام مغفورا مطمئنا بقائمه، وعمل جريئا في الحق مغفورا بدائمه، فقام عبد إحسانه ورسول إيمانه، وعنوان الأعلى لمعناه رفيقا أعلى لروحه، ونصبا ظاهرا بمبناه، آدم أوادم لمن يليه، وعبد إمامة لمن يرتضيه، وبيان قيام لمن تقوم صفاته فيه.

برسالة الذات نتكاثر آمناه، وبرسالة الروح تتجدد استقبلناه، وقد جعله الله رحمته للعالمين، أول بيت يوضع عنون به أول بيت رفع، ولم يُجعل منه آخر بيت يرفع، فكم رفعت من قبله بيوت استكملت معانيها بعيدا عن الأرض، ذكر فيها اسم الأعلى فيها، ورحمة للعالمين كم توضع من خلاله بيوت مرفوعة لتكون من خلاله بيوتا موضوعة، تخلفه ويستخلفها فيبرزه القديم الأزلي، قديما للقائم، وقياما وبعثا للأبدي الدائم، كتاب علمه، وطريق استقامته، وإنسان لقائه، فهو إنسان الأمر الوسط بين الأزل والأبد الإنساني في الله لله.

يصطفي الله به من بعده من يصطفيه لعينه ومعناه، دواما لبيانه، وتجديدا لبنيانه، ومثاليةً لعنوانه، بعثا بما بُعث به من الحق، لعنوانه رحمة مهداة لطالبي الحقائق، وبدءا للحق للمجاهدين والمتابعين بعلمهم وباستقامتهم لكسب ما لهم من الحق في أنفسهم لأنفسهم، وقتل ما بهم من الباطل لها بإحياء قلوبهم، وتحرير عقولهم، وإطلاق أرواحهم، وإحياء أشباحهم، وتطوير ذواتهم من معدومها إلى الأبقى لها، طلبا للباقي بها، والقائم عليها، والمحيط من ورائها، من أبرزها في حال استقامتها في قائم قيامها، وجها له، وجها يَنظُر، ووجها يُنظَر لوجه يقوم به التجلي والنظر.

فمن يكون الأمر المنتظر؟ ما كان إلا من عُرف ونُظر، وذَكَر فذُكِر، وجاء به الحق ذكرًا محدثا لقديمه ذكرا أسبق من أقدم بمعناه إلى أزل، فكان حقيقةً حجر الزاوية في طريق الله، نقطة فيها يلتقي خط الحق الأزلي مع خط الخلق الأبدي، نقطة يتقاطع الخطان عندها بيتا لحق متصل إلى أزل، وخلق متواصل إلى أبد. مجمع البحرين ومحل الأمرين.

إن الرسول.. إن عبد الله بقلبه وبقالبه، وبرأسه ووجهه، وبجوارحه وخلاياه ودمه، جماع هيكل ونصب به قام الحق على ما كان في قديم به، وبه يقوم الحق في كل قيام به، ولكل قائم به، وبه يُنتظر

الحق لينظر في كل تواجد ببدء له، أو تواجد ببدء منه. إن للقلب عبادة.. وللقالب عبادة.. وللرأس عبادة.. وللذات بكلها عبادة.. ولمفردات الجوارح عبادة.. يتعبد ويتهيأ بها القلب والهيكل، وملحقاتهما للأعلى من الحق، وللأقوم من الخلق، قياما وظهورا، وبعثا بين فرق وجمع.

لو أوتينا الحكمة لعرفنا أن العابد من قيام المعبود، اسما، وذاتا، وصبغة، وأوصافا، واتصافا. فالمخلوق هو ظهور الخالق، والوجود علم على الموجد. فالقلب العابد له قلب معبود.. والعقل العابد له عقل معبود.. والقالب العابد له قالب معبود.. والذات المجتمع عابدًا له ذات مجتمع في وصف المعبود. وما عبادة العابد للمعبود إلا طلب الغذاء بالحياة لمعنى وبنيان العبد فيه والعبد له من موائد المعبود عنده. فعبادة العقل طلب نمو الوعي، ومزيد الكشف من العلم عن المعلم الذي هو أكثر عقلا، وأوسع معرفة وعلما. وعبادة القلب بامتداد الذكر قياما بالمذكور بوصف الأعلى. وعبادة القالب الاستقامة لقانون الفطرة طلبًا للقيام الأقدس شهودا ووجودا. وعبادة الهيكل مجتمعا الإيمان بواجب الوجود، وكماله وصوله للعرفان للأعلى بقائم العلم عنه فيه، واستقامته في رحمته للأدنى بقائمه، قائما بالقيوم عليه قيوما به، وبرحمته رحمة مضافة للقيوم عليه، على ما قام عليه من عَلِيّه قام.

لقد جاء رسول الله وعبد الله.. وحق الله.. ووجه الله.. ولسان الله.. وعين الله.. وأُذن الله.. ويد الله.. رحمة للعالمين بهذا كله رسولا به بعرفانه لقيامه.. جاء به إلى مرسل إليهم بُشِّروا به فطلبوه لأنفسهم ليكونوا بمبانيهم له عنوانا، وتكون معانيهم به له ظلالا. وهذا مراد الله به للناس رحمة. وما أرسلناك إلا كافة للناس، وما أرسلناك إلا لتكون مثالا مرضيا، محمودًا، محمدًا، أحمدًا من كل مثال لكل الناس، يرتضونه لأنفسهم فيعطونه رحمة مهداة ما لأنفسهم قبلوه وبحقه عاملوه.

إن محمدا العربي.. إن الوجه العربي لرسول الله، لا وطن له، ولا قومية له، ولا أرض له، ولا سماء له. إن الكتاب العربي.. إن الإنسان العربي الذي جُعل مثالا وقدوة لكافة الناس لم يكن بذاته المعلومة ونُصبه المقام خلقا بين الخلق ليتحدث إلى كافة الناس. فالمراد بتعميمه رسولا متحدثا أن يتحدث بمعناه، بظلاله لمعناه في قيامه الدائم قياما للناس، قبضة نور الله به لمعاني الحياة لهم، مبعوثا على رأس القرون في قرن كل نفس في لمحات الزمان.

كان وما زال نورا يسري في الناس فيقومهم، ناحرا ظلامهم، محييا قيامهم، موقظا نيامهم، مجددا دثرهم، محررا ألبابهم، محييا قلوبهم، في كل أمة بمن صلح من أبنائها، وفي كل أمة بكل لسان انتهجته وتكلمته وتعارفته رسول الفطرة بدين الفطرة لقائم الفطرة، {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم}[٢]، وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، بلغة قومه، بقائم قومه، بعادات قومه، بخلق قومه، بقيام قومه، بطبيعة قومه، ليُعرِّفهم، ليبين لهم، ليتواصى معهم بالحق، ليتواصى معهم بالصبر. فنقل

الحكمة من لغة إلى لغة لا يكفي لقيام حجة الله به، فما كان محمد فردا، ولكن كان جمعا في فرده يوم قام فردا وجمعا بظاهره تعبيرا عن أمر الله به بباطنه، مزوية له الأرض لرسالته، وتعريفه مسجدا وطهورا.

فكان أمة بأمته بمن استقام منها أمة له. وكان إنسانية بأممه، ما تجمعت أمم على ما قام به من الحق مثالية الوجه الحق لله للكافة، ما حرصوا على أن يكونوا وجوها لله.

ما بين قريتين عمل، ذَكَّر فجُحد، فعن قومه جاحديه غاب غاضبا مسالما، ولطالبيه من الناس آوى معاهدا مناصرا مكالما، ثم رجع إلى جاحديه قويا قاهرا عادلا حانيا مسالما، فعرفوه حقا للرب وللأعلى مسلما، وعرفوهم لأنفسهم معه ظالميها فأسلموا له، فسالمهم وغفر، ونسي ماضيهم، وبقادم مغفور مرحوم وعد وذكَّر.

فماذا كان منهم؟ كان منهم ما كان مما عرفتم مع عترته وأهله، فرجع إليهم كلما رجع بما كان، رجع بما كان منه مع كل إمام جدد أمر دينه، وعادوا إلى ما كانوا فيه معه، فكان منه ما كان منه كلما انتصر، وكان منهم ما كان منهم، كلما تكنز أو ظهر.

فعلى ما عمل بين قريتين، وعلى ما عمل كلما جدد بذات رسالته هو يعمل اليوم في الاتصال الروحي بين سمائين، من السماء الدنيا سِفل العالين، وعالي سمائه وجوه العليين، فهكذا هو حجر الزاوية دائما، ورسول الغيب للشهادة دائما، وظاهر القيوم دائما، وقيوم القائم دائما، رسول الحق بالحق، وعبد الحق لحق الخلق، لا يعرفه إلا حق، ولا ينكره إلا باطل، ولا تشهده إلا حقيقة، ولا يحيط علما به إلا من كان في الله فانٍ، وبه قائم، وله مُذَّكر، وبه مُذكِّر.

اقترنت الشهادة بلا إله إلا إله بالشهادة له محمدا رسول الله. رُفع ووضع ذكره وبيته. رفع محمدًا، ورُدّ محمدا، وعلا محمدا، وذُكِر محمدا، وذَكَّر محمدا، وقام على من رضيه محمدا عبد الله، ورسول الله، وحق الله، وحجر الزاوية لمعارج الله كلما تلاقى قيوم بقائم، وكلما تعارف موقوت لدائم، وكلما تقارب أزلي لأبدي. به عرفنا الألوهية والربوبية والرسالة والعبودية معاني للوجود وصفات لكل موجود، فقدرنا الله حق قدره، وعرفنا الله اسما ومسمى ومعنى ووجودا وزمنا وظاهرا، وغيبا ومنزها ومشبها، وعَالِما ومُعَلما ومعلومًا، وموجودا ومتواجدا، وواسعا ومتسعا، ومحكما وحكيما، ومتعاليا ومدانيا، ولطيفا وذاتا. أظهره على الدين كله وأظهرنا به على الدين كله، وبه على ما تخلق من خلق الأعلى ظهر فبه رضي لنا الإسلام دينا، وأتم علينا نعمته ووعدنا نصره ما استنصرناه بنصرنا لكلمته بيننا.

اللهم به فأصلح أمرنا، أمرًا له، وأمرا لك.. اللهم به فارحمنا، وارحم بنا.. اللهم به فقومنا، وقوم أمورنا، وقوم بنا أمة له، وعبادا لك.. اللهم به فأصلح شأننا حكاما ومحكومين، قادة ومقودين، مجاهدين ومتابعين، معلمين ومتعلمين.

اللهم به فأنزل سكينتك على قلوبنا، والسلم والسلام على أرضنا. اللهم به فألف بيننا، وألف بين قلوبنا، وألف بين عقولنا، وألف بين نفوسنا، وابن بنا بناءً لبيت موضوع، مرفوع، نحن لبناته يذكر فيه اسمك.

لا إله غيرك ولا معبود سواك

أضواء على الطريق

{يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان}[٣]، {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله}[٤] {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم...}[٥] .. (يقوم ويتقلب في الساجدين)[٦].. {إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون}[٧].

والرسول يقول (أنا روح القدس)[٨].. (من رآني فقد رآني حقا)[٩]

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة النحل - ٦١

٢ سورة ابراهيم - ٤

٣ سورة الحجرات - ١٧

٤ سورة الحديد - ٢٨

٥ سورة الأحزاب - ٦

٦ استلهاما من {الذي يراك حين تقوم. وتقلبك في الساجدين} سورة الشعراء – ٢١٨، ٢١٩

٧ سورة يوسف - ٨٧

٨ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٩ إشارة إلى الحديث الشريف: مَن رآني فقَدْ رَأَى الحَقَّ؛ فإنَّ الشَّيْطانَ لا يَتَكَوَّنُني." صحيح البخاري. وقد جاء بلفظ "مَن رآني في المَنامِ فقَدْ رآني، فإنَّ الشَّيْطانَ لا يَتَشبه بي". صحيح ابن حبان.